نظرٌ عقليٌ في الوحي

للاب لويس معلوف اليسوعي

(تتمّة لما سبق)

٣

لكن الطبيعيين يردّون علينا مقالنا و يزعمون اننا اتينا بكلام ينقض بعضهُ بعضاً. يقولون: عجب ثمَّ عجبٌ. أيُعطي اللهُ الانسانَ عقلا اي قوّةً فاهمة ولا يمكّنهُ من الفهم؟ ذلك محال لانَّ فهم الانسان بسيط لا تنوّع فيهِ فكيف يجوز القول بان الانسان حاصلٌ عليهِ ثم القول بأنهُ غير حاصل عليهِ وهذا هو عين التناقض

الجواب على هذا أيسر من ان يُقتضى لهُ طول البرهان. نعم لا تنوّع في الفهم فاما ان يكون الكائن ذا فهم كالانسان واما ان يكون لا فهم لهُ كالحيوان او الجماد. ولا توسّط بينهما. ولكن ان لم يكن في الفهم تنوّع ففيهِ تفاوُت ودرَجات. نعم اعطى الله الانسان قوّةً فاهمةً وقد مكّنهُ من الفهم ولكن من فهمٍ محدود محصور لا ينال كلَّ حقيقةٍ من الحقائق. وهذا امر بسيط جليّ لا عجب فيهِ بل العجب العجاب ممّن بنوا المقالات المسهبة بل كتبوا الكتب الضخمة وشحنوها بالاستدلالات السفسطيّة محاولةً نقض القضيّة التي ذكرناها

بيدَ أنّنا لسنا ننفي عن الانسان كلَّ عمل فهمي في شأن الوحي. انّما نقول انّهُ لا يفهم كُنه الحقائق الموحى بها وجوهرها وكيفيّتها فقط. ولكن يمكنهُ بنفسهِ و بقواهُ العقليّة الادراكيّة ان يبحث عن الادلّة التاريخيّة و ينظر نظرهُ في البراهين النقلية الى ان يتبيّن لهُ جليًّا ان الوحي حصل لا محالة في زمن معلوم ومكان محدود وهذا يُجديهِ كلَّ الفائدة من حيث اليقين. أما ترى انّهُ اذا ادرك ادراكاً ثابتاً راهناً انَّ الله تكلّم وعرف معرفةً صادقة علميّة انَّ تلك وتلك الحقائق قد فاه بها الهٌ حكيم صادق عليم لا يبقى هناك مكان للريب والشكّ ويكون اليقين كاملاً من كلّ وجه بل واثبت في حدّ ذاتهِ من اليقين الطبيعي الذي يتّصل اليهِ الانسان بمجرّد فهمه. فانَّ هذا ربّما يعتريهِ بعض الفساد والضلال اما ما فاهَ بهِ ربّ الحقّ ذاتهُ فلا سبيل للضلال اليهِ

وربما يدور في خلدك ان تسألني وتقول: ان كان الله اوحى بالحقائق فلم يا ترى لم يوحِ ايضاً بالادلة العقليّة على تلك الحقائق فيدركها العقل البشري ادراكاً اكمل واجلى

جوابي انَّ الله لم يوحِ بالادلّة المذكورة لانهُ كذا شاء ولم يحسن في عينهِ ان يوحيها. أليس ربُّ الكون حرًّا في إسباغ نعمهِ؟ أليس لهُ لا لغيرهِ الحكم في انارة البصائر ام عدم أنارتها؟ ولا تظنَّ حرمك الله انَّ كلَّ ما نستصوبهُ نحن يكون عند ربِّ العرش مُستصوباً مُستحسناً. وعلى كلّ فالعقل يُطلعنا على ان الانسان لا يحقّ لهُ الّا القناعة بما اعطاهُ ربُّهُ وانهُ من الجهل والغباوة ان تطمح عينهُ الى الحصول على كلّ خير او علم فاتهُ. وذلك جواب لا شكَّ كافٍ. وصوابهُ يزداد عندك اتضاحاً ان اعتبرت ان تلك الادلّة لو اراد ربُّكَ ان يوحي بها لما كانت لعمرك يتجلّى بيانها الّا لاصحاب العقول الهجّامة والالباب الذكيّة ولما كان يفقهها من الناس إلّا الرهط اليسير لما تقتضيهِ بعض الحقائق من المباحث الفلسفية والاستنتاجات العقلية. وبناء عليهِ يكون الله بوحيهِ تلك الادلّة قد انعم بانوارهِ على بعض الناس وحرم منها القسم الاعظم منهم بلا ذنب

زد على ذلك ما انتباهُ من ان الانسان باعتقادهِ هذه الحقائق الفائقة الادراك يُخضع عقلهُ لله على الطريقة التي يبتغيها

ومرجع كلّ ذلك الى انَّ الله لا حدّ يحدّهُ ولا غاية يقف عندها كمالهُ خلافاً للانسان الذي هو من جوهرهِ ووجوبًا عاجز القوى محصور الكمالات من كلّ جهة وفي كل اعتبار اعتبرتهُ. فمهما أعلَمهُ بهِ ربُّهُ ومهما أوحى اليهِ من الحقائق والادلّة فما يتّصل ولن يتّصل علمهُ الى الاحاطة بكل مفهوم ومن الواجب الوجوبَ المطلق ان يكون دائماً هناك وراء ما يفقههُ ويعلمهُ حقّ العلم امورًا جمّة يجهلها او يُعمى عليهِ سرُّها

٤

بقي ان ندحض قول الفيئة الثالثة من الطبيعيين الذين يزعمون بان الوحي لا فائدة منهُ للانسان. فاقول ان للوحي منافع جمّة لا بل انَّهُ لازم لزومًا حتّمًا ليقوم الانسان بواجباتهِ قيامًا تامًّا

سرْ معي حفظك الله الى احدى مدارسنا واسمع ما يقال. أما ترى صغار الصبيان كيف يخوضون في اجلّ المباحث واسماها مقامًا أما تسمعهم يكرّرون على مسامعك في اهمّ الحقائق كحقيقة الله والنفس والواجبات والاخلاق والمبدأ والمعاد اقوالًا تفوق

حكمةً وصوابًا كلَّ ما ارتأتهُ حكماء السَّلف والخلَف الذين لم تشرق على بصائرهم انوار الوحي . هؤلاء الحكماء قد ذهبوا كلَّ مذاهب الشكّ والضلال ولم يوصلهم طول البحث ومثابرة السهر الّا الى القرار اليسير من تلك الحقائق المهمّة . وما بلغوا اليهِ من الحقّ . كم وكم يتخلّلهُ من الاوهام الفاسدة والتّرهات التي يكاد العقل لا يتصوّر امكان صدورها عن رجال مثلهم

خذ مثلًا حقيقة المعبود فانك تجد انهُ لم يقل بوحدانيّتهِ الّا العدد القليل منهم واذا تكلّموا عن ماهيّة الله وخواصهِ اتوا بكلّ رأيٍ واهن . اذكر من ذلك القبيل اعظم فلاسفة القدم : سقراط . افلاطون . شيشرون . انّهم لم يستقبحوا عبادة الالهة المتعدّدين كالمشتري والزُّهرة وزحل و باخوس والمريخ الخ . بل استحسنوها واعتدّوا اكامها من واجبات سكّان بلادهم . بل لم يروا ان يقضوا على ما كان يأتيه الناس في تعبّدهم تلك الالهة من الملاعب الخلاعية والعوائد الوحشيّة الفظيعة التي تقشعرُّ لذكرها الابدان وينفر اليراع من التعبير عنها — امّا ديمومة النفس فقلّما اعتدوها حقيقةً وصوابًا . حتى من اتوا على اثباتها ببعض البراهين لم يعشوا ان ارتابوا في امرها ارتيابًا لا شفاء لهُ ولم تكن ادلّتهم على هذه الحقيقة لتشبع الخواطر وتكتسب اذعان العقول . وكان شيشرون يقول انهُ كان يوافق افلاطون على رأيهِ في ان النفس لا تموت طالما كان كتاب ذلك الفيلسوف في يده ولكن متى كان يترك الكتاب جانبًا كان حالًا يتزعزع ركن اعتقادهِ ويندكّ اندكاكًا . امّا من جهة الاخلاق فقُلْ ولا حرج فان اولئك الفلاسفة قد علّموا كل عار واحلّوا كل رذيلة . صيّروا الظلم فضيلةً والخلاعة فرضًا مفروضًا . جعلوا الاموال مباحة والاعراض ألعوبة الفحش والعهارة . اجازوا تزوُّج الأُمّهات بالبنين . اجازوا الاشتراك بالنساء الخ الخ . راجع تواريخ تلك الازمنة ترَ عجبًا

فاين حفظك الله تلك التعاليم بل تلك الاضاليل من الحقائق النيّرة السامية الطاهرة الجليلة التي اطلعنا عليها الوحي فامتلكت قلوبنا ودرّبت في الهدى اعمالنا ودارت على ألسنة كبارنا وصغارنا ورتعنا في نورها البهيّ آمنين الضلال وعواقب الغيّ

ولا غرو . فانّ الوحي ان دقّقتَ في امرهِ نظرك لهو اسهل واسطة لتثقيف عقول البشر واحسن طريقة لتبليغهم الحقائق يناسب عقول الناس كلهم عالمهم وجاهلهم ولا يفوق مدركهم مهما كانوا عليهِ من السذاجة وهو اقرب واوجز خطّةٍ في ازالة الاوهام

ونشر التعاليم الحقة الخلاصيَّة اذ انهُ يكفي العقول مَؤونة التنقيب والمطالعات ويجعلها على أمن من فوات الفرص او اضاعة سواء السبيل نعم انهُ آمنٌ وسيلةٍ في ذلك كلهِ لان الخبر بتلك الحقائق هو الله ربُّ الحقّ نفسهُ ومن علَّمهُ الله لم يضلّ

اتقول بعد ذلك ان الوحي لا طائل تحتهُ ولا نفع منهُ

زدت ان الوحيَ ضروري ليس للانسان عنهُ غنى ان اراد ان يقوم بدينهِ قياما حسنا تامًا. وقبل ان نورد عليك البرهان في حقيقة هذه القضيَّة نذكرك ان الضرورة نوعان فمنها مطلقة ومنها غير مطلقة. تكون الواسطة ضروريَّة ضرورةً مطلقة ان لم يمكن الحصول على الغاية دونها مهما تكبَّد الانسان من الجدّ والعناء. وتكون ضروريَّة ضرورة غير مطلقة ان امكن الحصول على الغاية دونها ولكن بمشقَّة عظيمة وبتعسُّر شديد وصعوبة هذا حدّها حتى ان معظم الناس نظرًا لطبائعهم وخصائصهم لا يتجشَّمون تلك المشقَّات فعلًا ولا يقاومون تلك الصعوبات المقاومة الكافية بل تنحطّ دون تذليلها قواهم. وعليهِ يفوتهم بلوغ الغاية ويصبحون منها محرومين

فاقول ان الوحي لازم للانسان في اعتبارين: ان اعتبرنا ان الدين دين فائق الطبيعة كما انهُ قد حصل حقيقةً اي اذا جعلنا الكلام على حالة تفوق الطبيعة الانسانيَّة ونظرنا الى ذلك الدين الذي يجعل بين الانسان وربّهِ علاقات غير وفْق العلاقات الناجمة عن الطبيعة نفسها فعندئذٍ لا شكّ في ان الوحي لا مندوحة عنهُ وانهُ لازم لزومًا مطلقًا كليًّا (١ اذ انهُ يصبح الواسطة الوحيدة لادراك ماهيَّة ذلك الدين الذي لا يمكننا الاطلاع عليهِ من مجرَّد النظر في طبيعة الاشياء بما انهُ يفوقها. وعلى تلك الماهيَّة التي تفوق طور الاستدلالات العقليَّة تترتَّب فروض واعمال وخطط تحتاج في امر معرفتها الى ايماز ربَّاني

هذا في اعتبار الدين الفائق الطبيعة. امَّا ان حصرنا قولنا في الدين القائم على العلاقات الطبيعيَّة بين الخالق والمخلوق والتي يمكننا ادراكها بمجرَّد قوانا العقليَّة فالوحي حتى في هذا الاعتبار لازم لزومًا حقيقيًا وان كان غير مطلق كالسابق. وهو لا مندوحة عنهُ من اوجهٍ لحسن القيام بالدين الطبيعيّ هذا نفسهِ وتمام الانقياد لنواميسهِ

---

١) انما نعتبر لزوم الوحي من جهة الانسان لا من جهة الله لانَّ الله عزَّ وجلَّ حرٌّ في وحيهِ

واليك البرهان الذي يؤيد لنا هذه الحقيقة ويكشف لنا الحجاب عن يقينها

اقول انك ان اعتبرت ان الدين قائم على ان يعرف الانسان ما بينهُ وبين ربه من العلاقات وان يسير بموجب ما يترتب على تلك العلاقات من الفروض والواجبات. رأيت انهُ هناك حقائق وواجبات وعلاقات يكاد يعجز الانسان عن ادراكها وفهمها كما يجب ان لم يرسل البارئ عليهِ انوار الوحي. يجب على الانسان ان يعرف حقائق الدين الجوهرية كلها وان يعرفها دون عظيم مشقة وعناء ودون شك وارتياب وضلال. يجب ان يُدرَّب تدريبًا حسنًا ظاهرًا بيّنًا نحو غايتهِ القصوى الخ. . والحال ان كل من بحث عن هذه الحقائق وما شاكلها بحثًا تامًا علميًا يقر لك ان تبيانها وتقريرها وودّ كل ريب عنها لهو امر دقيق طويل صعب المراس. ولست اخشى ان اقول ان ادراك كل انسان لها الادراك الكافي الحسن يكاد ان يكون مستحيلًا. اينما اتجه العقل لينظر في الحقائق المتعلقة بالدين — وكلامي عن الدين الطبيعي نفسهِ — يصادف اسرارًا غامضة. طبيعة الله سرٌ غامض وكذا ماهية الانسان سر غامض. نعم يتيسّر للعقل ان يبحث في هذه الشؤون بعض البحث لكنهُ يكلُّ دون استقصاء المرام من اليقين ولا يزال قلقًا تتلاعب بهِ رياح الشكّ والارتياب. وكذا قل في امر ابدية العقاب والمثاب وفي شأن السعادة القصوى وفي كيفية التوفيق بين سابق علم الله وحرية العبد واختيارهِ وفي وسائط ارضاء العليّ واستعطافهِ الخ. تلك لعمرك حقائق عديدة العُقَد خفيّة الطوايا ولا يُتَّصل الى تقريرها كما قلنا الا بالادلة الطويلة والبراهين الدقيقة فيسهل في كلّ ذلك الحَيدُ عن جادّة الصواب والتهوُّر في وهاد الضلال. وهذا امرٌ بيّن لا يرتاب فيهِ احد ممّن طالعوا كتب الذين خاضوا في هذه المواضيع بين السلف والخلف ولم يرضوا الاهتداء بهدى وحي ربّهم. خذ كتبهم وأجِلْ فيها لحظك واخبرني بما تجد عندهم: آراء تتشعّب ومذاهب تتباين واقاويل تتناقض وتتعاند. فانْ سألتُ زيدًا عرض عليَّ مذهبهُ وما يرتئيهِ الصواب فأصدّقهُ. وان خطر لي بعدئذٍ ان اسأل عمرًا في الموضوع ذاتهِ أعلن بانَّ مذهبهُ يعاكس مذهب زيد من اوجه وان الصواب ما يقولهُ هو لا ما يتوهمهُ القوم. فذاك تناقض تامٌ في حقائق تهمُّني جدًّا ولا بُدَّ لي من ادراكها ادراك اليقين وهي ذات الشأن الاعظم عندي فمن يقوم لي حَكَمًا بين عمرو وزيد ومن يدلُّني على الهدى ويرشدني الى جادّة الحقّ والا اصبحتُ:

كريشةٍ في مهبِّ الريح ناثرةٍ لا تستقرّ على حالٍ من القلقِ

وهكذا يبدو كلّ انسان يسعى وراء دينهِ وتضحى الاديان متماكسةً متناقضةً لا وحدة فيها ولا انتظام فتكون هي المُبعدة عن البارئ لا المُقرّبة الى وجههِ جلّ جلالهُ

أَلست ترى ان هذا اعتبار حقائق الدين وصَعْب امرها يقضي لا محالة بوجوب نبإٍ سماويّ ينشر على الورى اشعّة شمس الهدى فيبدّد ظلمات الجهل والريب التي لولا رحمة الرحيم لكان العالمون فيها طول المدى يتكدّمون

وان اعتبرت ماهيّة العقل البشري نفسهِ يتجلى لك صدق مقالي اجتلاء اكل حقائق الدين ليست لعمرك باقرب موردًا وابهى مجتنًى من حقائق الفنون والعلوم الطبيعيّة فانظر الى عقل الانسان كيف انهُ توصّل الى هذه ومنهُ احكمَ على كيفيّة توصلهِ الى تلك. قد لبث العالمون سنين واجيالًا لا يفكّرون في تلك العلوم والفنون ولا يحرّكون اليها عامل البال. ولمّا اخذوا يتفنّون بها لم تنكشف لهم بعض اطراف الحجاب عن حقائقها الّا بعد الاتعاب الشاقّة والمباحث الطويلة. وكم ضلّوا في مساعيهم وكم اكتشفنا لهم من الأوهام. بيدَ انّا نحن ايضًا في عصرنا هذا الذي ذلّل في سبل نشر العلوم والمعارف اشدّ المصاعب والموانع مَن منّا يمكنهُ ادراك حقائق العلوم ان لم يكرّس لها عملًا وسهرًا طويلًا ان لم يقضِ العمر في البحث والتّنقيب وربّما فاتهُ بُلوغ الوطر. وعلى كلٍّ فلا يفوز بالمنى من ذلك الّا الرهط القليل. على انّ هذه الصعوبات وهذا العجز عند معظم القوم عن الاحاطة بالعلوم والمعارف ليس من شديدِ طائلٍ تحتهُ ان وجّهنا النظر الى المبادئ العُليا والغايات القُصوى التي خُلق الانسان لنوالها. ولكن لا يحقّ هذا القول بالنسبة للدين والحقائق المختصّة بهِ. فان حكمة ربّك وعنايتهُ تقتضيان ان كلّ انسان يكون قادرًا على معرفة العلاقات القائمة بينهُ وبين مبدعهِ وهو يصعب عليهِ ذلك جدًّا إذن لم يبقَ طريقة إلّا الوحي الالهي يكاد الانسان ان يكون لهُ غنًى عنهُ حتى ولو افترضنا الدين دينًا طبيعيًّا

ولعلّك تعترض عليّ وتقول: انّ في عصرنا بعضًا من رجال العلم يستدلّون بمجرّد الادلّة العقليّة على الدين الطبيعيّ وما يقتضيهِ من الواجبات. اذ هؤلاء العلماء لا حاجة

لهم الى الوحي الربّانيّ . بل وبوسعهم ان يبلّغوا القوم ما اوصلتهم اليهِ مباحثهم العقليّة فيصبح الجميع على غنًى عن كلّ وحي لا يعود منهُ نفع للبشر

اجيب اوّلًا : انّ علماء عصرنا قلّما يفوقون علماء الاعصر الغابرة في اطالة النظر وإعمال الفكر والتنقيب عن الحقائق التي نحن بصددها . وقد مرّ بك كيف ان الغابرين خاضوا سواء السبيل وتلاعبت بهم كل اهواء الضلال . وان وُجد بين علماء عصرنا وحكمائهِ من نال حظًّا اوفر من ادراك الحقّ وبلغ منهُ بعض البلوغ فلا تظنّ انّهُ اتّصل اليهِ بمجرّد قواهُ الشخصيّة بل كن على يقين انهُ استنار بانوار الوحي التي تحيط بهِ من كلّ جانب وتجلّل قممَ الابصار في كلّ امّةٍ ومكان . ايّ عالم يبحث مباحث عقليّة تظنّهُ اعزّك الله لم تبلغهُ تعاليم ربّ المجد ومصدر كلّ حقّ ربّنا ومخلّصنا ابن الله الحي ؟ ايّ عالمٍ لم يعشِ وغمًا عنهُ في انوار شمس العدل والصّلاح والهدى التي اشرقت على الكون منذ تكلّم ربّك وسار بين الناس واطلعهم على ما انطوت عليهِ اركانُ العُلى من الحقائق السامية الخلاصيّة ؟

على انّك لو دقّقتَ النظر وبحثت عمّا اتّصل اليهِ اولئك الذين حاولوا في عصرنا اقامة دين لهم من دون ان يُذعنوا لوحيٍ فعندها يتّضح لك مرّةً أُخرى عمى الانسان وعجزهُ عن ادراك الحقائق الدينيّة . فمنهم من ذهب الى انّهُ ليس من الواجب على الانسان ان يعبد ربّهُ عبادة باطنةً باخضاع العقل والقلب . ومنهم من يزعم ان العبادة الخارجة ومظاهرها امر فارغ لا طائل تحتهُ ولا داعي لهُ . يقولون بان لا فرق جوهري بين الصلاح والطلاح بين الفضيلة والرذيلة وبين البرّ والعار . يقولون بانّ كلّ امر يُباح للانسان عملهُ وليس عليهِ ان يهرب الّا ممّا يسبّب لغيرهِ ضررًا او يجحف بالحقوق المادّيّة . يقولون ايضًا ان الاله ليس الهًا عادلًا رحيمًا مثيبًا عن الخير معاقبًا على الشر زاعمين انّهُ اعلى وارفع من ان يهتمّ بشؤون البشر . ومنهم ايضًا من يذهب الى انّ النفس تموت بموت الجسد فلا حاجة لإتعاب القلب بما بعد الممات الخ

فترى من مجرّد ذكر بعض اضاليلهم في هذا الشأن انّهم قصّروا عن بلوغ الغاية ولم يقووا إلّا على اظهار ضعف الانسان وشدّة عوزهِ الى وحي ربّهِ

ولكن دعنا نفترض افتراضًا جدليًّا ان العلماء تمكّنهم مساعيهم ومباحثهم العقليّة بمعزل عن الوحي من الاكتشاف على دين طبيعيّ صادق لائق بالبشريّة ومن فطرها .

أنفسهم يقدرون على نشر دينهم بين الناس واطلاعهم عليه. أنحالهم يتجشمون الاتعاب والاسفار والهموم في سبيل افشاء ذاك الدين في الاقطار والامصار الشاسعة. بل اي نفع يكون لهم من ذلك وأيّ حاثّ يحثهم على هذا المشروع

وان هم رضوا القيام باعباء هذا الامر فاي طريقة يتخذونها في سبيل اقناع الناس بصدق مقالهم سوى البرهان والادلّة العقليّة. وهذا لعمرك سبيل لا يُجدي نفعا ولا يضمن لهم نجاح المسعى. انّما الناس معظمهم لا استعداد لهم ولا مقدرة على فقه البراهين والادلّة التي يجب ايرادها لتأييد هذه الحقائق. وعندها يلتزم كل من يعجز عن فقه البراهين ان يؤمن بما يقولهُ لهُ اولئك العلماء ناكرو الوحي وان يذعن لهم مسلّما بصدق كلامهم. ولكن هذا يكون عين الظلم والاعتساف. لانّهُ ان لم يكن الانسان يُدرك بعقله صواب مقالهم فباي حقّ يلزمونهُ باعتقاد ما يرتاونهُ ولِمَ يا ترى يؤمن بكلامهم ولا بكلام غيرهم. بل لِمَ لا يقتصر على ما يلوح لخاطره من الصواب دون ان يركن الى غيره في معتقداته وتعبُّده. اذًا يصبح الناس وكل منهم يتدين بما يحلو لهُ فيكون لك دينك ولي ديني ولكلٍّ دينهُ وهناك كما لا يخفى عن فهمك النيّر امرٌ بيّن الضلال لا يقف عندهُ من آمن بوجود اله واعترف بوحدانيّته

بقي أنَّ الوحي ممكنٌ نافعٌ لازمٌ. وبما ان الدين إنّما مرجعك واجب وجوبًا كليًا في نظر العقل فينتج ان الوحي ايضًا يجب الاذعان لهُ والعمل بهِ. هدانا الله بهداهُ الى كلّ ما ارادهُ من الخير والسعادة

البواسير واكتشاف دواء جديد لها

للدكتور نابوليون مارديني

عرّبها حضرة الاب انستاس الكرملي البغداديّ

في تعريف البواسير واقسامها وتولدها

١ً (لُغَوِيَّةُ اللَّفْظَة)* البواسير جمع باسور قال جمهور اللغويين: «وقد تُبدل السين صادًا فيقال باصور». لكنهم لم يتفقوا على اصل الكلمة. قال احمد المقّري الفيُّومي:

* القطعة الاولى مع الحواشي للمعرّب